)

فى: يونيو 07, 2016

محمد المساوي

بعد مرور 31 سنة، ما زالت الوفاة الغامضة للباحث والسوسيولوجي بول باسكون يوم 22 أبريل 1985 تثير الاسئلة وتستدرّ علامات الاستفهام؟ فمن هو بول باسكون، وما قيمته العلمية والاكاديمية، ولماذا تُوصف وفاته بالغامضة؟

لمحاولة الاقتراب من هاذين السؤالين سنعيد في"أنوال بريس" طيلة شهر رمضان نشر بعض حوارات باسكون، وبعض محاضراته وبعض ما كُتب عنه، سيكون عملنا تركيبيا يهتم بجمع المادة المتوفرة حول أبحاثه وشخصه، وهي مادة متناثرة هنا وهناك، ربما يبقى العدد 3 من مجلة بيت الحكمة اكتوبر 1986 اهم مرجع حاول ان يلملم صورة البحث العلمي الجاد الذي سلكه الفقيد، بالإضافة الى الحوار المهم الذي أجرته معه زكية داوود لحساب مجلة لامااليف سنة 1978 وترجمه الراحل مصطفى المسناوي، وفي هذا الحوار المطول يسلط الضوء على مشروعه البحثي والمسوغات التي جعلته يقدم عليه بشغف وحيوية واجتهاد قل نظيره، كما سنعيد نشر مقالات اخرى له نُشرت في مجلات مغربية مختلفة مثل "المشروع" و" المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع" ، وقد احصى أحد المهتمين ما يربو عن 150 مقالا كتبه باسكون، بالإضافة الى الكتب الجماعية التي شارك فيها، واطروحته للدكتوراه حول حوز مراكش.

لقد جاب باسكون ببحثه قرى المغرب المنسي من ايليغ وايت اوداريم بسوس الى ايت بوفراح بالريف مرورا بقرى الحوز وتساوت وسكساوة بالأطلس، لقد كان الفقيد يشنّع على المثقفين ادعاءهم الحديث عن مجتمعهم وهم لم يبرحوا يوما عتبة مكاتبهم المكيفة والمؤسسات الجامعية، في حين اختار هو أن ينغمس في طمي الحياة، وينزل الى قاع المجتمع ليتحسس نبض الوجود، وأنين البؤس الذي يندّ من وجوه الفلاحين الذين التقاهم.

الموت الغامض: أكله الذئب في الصحراء وهل في الصحراء ذئاب

ليلة 22 أبريل 1985 سيترجل باسكون من الحياة وهو في عمر 53 سنة في أوج العطاء والنضج، كان بالكاد قد أنهى كتاب "فلاحون بلا أرض" بالاشتراك مع محمد الناجي. رحل باسكون في حادث أقل ما يُقال انه غامض ويطرح أكثر من علامة استفهام، كان رفقة تلميذه وصديقه أحمد عارف الشاب المغربي ذو 28 ربيعاً، رحل الاثنان جراء حادثة سير في صحراء موريطانيا على بعد 120 كلم من العاصمة نواكشوط؟ كانا قد قصدا المكان في اطار مشروع بحث بدعم مشترك من منظمة "الفاو" ومعهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة بالرباط، هناك كانت نهايتهما المأساوية، قيل أنهما قُتلا في حادثة سير في الصحراء، ولكم ان تتصوروا حادثة سير مميتة في الصحراء؟ بعض الروايات تقول ان سيارة الدفع الرباعي التي كانت تقلهم قد اصطدمت بكثبان رملية، ورواية اخرى تقول ان الاصطدام حدث مع جمل كان جاثما وسط الطريق ولم ينتبه إليه السائق، في كل الأحوال، الامر الذي

تيقن منه الجميع أن باسكون توفيّ مباشرة بعد الحادث بينما ظل صديقه لأزيد من 10 ساعات وهو يقاوم في الصحراء الى ان توفي باحدى المستشفيات في نواكشوط.

انها الحقيقة الماثلة امام الجميع؛ لقد رحل باسكون، ذاب توهجه وسط الرمال الحارقة، هو الذي سبق له أن فقد ابنيه الوحدين (جيل ونادين) سنة 1976 في رمال الصحراء نفسها، لقد اختطفا ابنيه وهما طفلين ولم يظهر لهما اثر إلا بعد 9 سنوات من اختفائهما، وقيل انهما تعرض للقتل على يد عصابة مجهولة، وهناك من قال ان عناصر من جبهة البوليزاريو من قتلتهما، المهم كانت الصحراء قدر باسكون وقبره، وحدها من تملك اسرار مأساته.

باسكون الذي عاش مسكونا بحرقة الأسئلة على حد تعبير اللعبي، ترك وراءه ارثا اكاديميا ضخماً، لكنه للأسف ضاع منه الكثير، والكثير منه على طريق الضياع، والأكثر منه حوصر بين رفوف مكتبات المعاهد والمؤسسات التي اشتغل معها.

يُتم البادية المغربية بعد رحيل باسكون

لقد اصبحت البادية المغربية يتيمة بعد رحيل باسكون، ما عادت هناك ابحاث حولها بعمقه وإصراره، كان الراحل أحد اعلام علم الاجتماع القروي، وتكلف بدراسة هذه المادة الحيوية بمعهد الزراعة والبيطرة، وأعطاها من نفسه الكثير، خاصة ان هو ايضا تربى في وسط قروي نواحي فاس من أبوين فرنسين، مما اورثه شغفا وحبا للقرية، فجعله ينغمس في تفكيك بنياتها واخضاع مجمل انشطتها للدراسة والتمحيص.

إن جريرة باسكون هي انه وضع يده في عش الدبابير، تجرأ على دراسة البنيات الاجتماعية التقليدية في البادية المغربية، في وقت كان ثقل القرية المغربية يشكل ازيد من 80 في المائة من ساكنة المغرب حينئذ، وكان سكان البوادي من فلاحين فقراء ومعدمين وخماسين يساقون من طرف الاعيان كما تساق الانعام، وكان النظام الملكي يعتبر القرية المغربية قاعدته الخلفية في مواجهة البورجوازية المتوسطة الصاعدة في المدن والحواضر، والتي شكّلت تعبيرات سياسية حاولت ان تنازع الملك في سلطته، لقد كان الفلاح المغربي مدافعا قويا على العرش الملكي كما كتب يوما ريمي لوفو، وباسكون حاول ان ينزل الى هذا الفلاح ليفهم منه وليُفهمه، وهو الذي كان يصرّ على أن المعرفة لا بد لكي تكون كذلك منم أن تنتج التغيير، اذ لا معرفة تحرّض على السكون وتأبيد الوضع، واستطاع باجتهاده وحنكته واصراره ان ينحت عميقا في هذا الموضوع ويحقق تراكما معرفيا كاد ان يوصله الى تقديم اطروحة كاملة متكاملة حول بنية النظام الاجتماعي في المغرب. وكما هو معروف فالتحديد العلمي لطبيعة نمط الانتاج في بلد ما، يعني من بين ما يعنيه ان النقطة رقم 1 في جدول أعمال الثورة قد أُنجزت. (ولنتذكر اعدام معهد السوسيولوجيا بداية السبعينات من طرف النظام المغربي).

ولادته من أبوين فرنسيين وحمله للجنسية المغربية

ولد بول باسكون يوم 13 أبريل 1932، واختار له القدر ان يرحل في نفس الشهر الذي ولد فيه، انه الشهر الذي تتزين فيه الأرض، وتخرج بكامل زينتها لتعلن الانتقال من فصل الشتاء الى فصل الصيف، فصل الجني وجمع المحصول.

ولد باسكون في منطقة تقع بين "الضويات" و"وادي النجا"، في سهل سايس، وهي المنطقة التي تحولت إلى ضيعة مَلَكية بعد الاستقلال ..لأبوين فرنسيين، كان أباه مهندسا فرنسيا عاملا بالأشغال العمومية، معاد لنظام فيشي شأنه في ذلك شأن زوجته، غداة الحرب العالمية الثانية فُرِضت الإقامة الجبرية على والدَيه بسبب مناهضتهما نظام فيشي الموالي للنازية، حيث حوصر والده في بوذنيب (في الجنوب الشرقي للمغرب).. أما والدته فقد فرِضت عليها الإقامة الإجبارية في ميدلت، فاضطرّ بول إلى المكوث في إحدى داخليات فاس لوحده طيلة فترة الحرب حتى الإنزال الأمريكيّ على شواطئ إفريقيا الشمالية سنة 1942 .

كشف التلميذ باسكون عن نباهة مبكرة، أهلته للحصول على شهادة الباكالوريا في العلوم التجربية، ليحصل بعد ذلك على الاجازة في العلوم الطبيعية سنة 1956، وبعدها بسنتين سيحصل على الاجازة في علم الاجتماع، هذا الجمع في التكوين بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية أهلته ليشق طريقه في نحت مناهج علم الاجتماع القروي بالمغرب، وخاصة وانه انخرط في البحث الميداني منذ بدايات تكوينه الاولى سواء في شعبة العلوم الطبيعية او علم الاجتماع.

وأنجز باسكون على امتداد سنتي 1955 و 1956 عددا من الأبحاث لفائدة بول تريانتون بمعهد العلوم الاجتماعية و الشغل، ليختار بعدها الإقامة الدائمة بالمغرب بدءا من سنة 1957، لينخرط مع عدد من الباحثين من تخصصات متنوعة لانجاز عدة ابحاث بدأها سنة 1954 ببحث حول هجرة امازيغ سوس "ايت أوادريم" الى مدينة جرادة. بيد أن المشروع العلمي لباسكون سيبرز بداية الستينات حينما عُيّن منسقا للدراسات العامة حول تهيئة الحوز الكبير بمراكش، توج ذلك بحصوله على الجنسية المغربية سنة 1964 وعُيّن سنة 1966مديرا للمكتب الجهوي لحوز مراكش.

وهذه لائحة بعض أعماله وفترات من مسيره العلمي والحياتي كما نشرته مجلة "بيت الحكمة":

1932: -الميلاد بـ فاس، من والدين فرنسيين

1954: -نشر أول دراسة، وكانت عن «هجرة شلوح سوس (أيت وادريم) إلى جرادة».

1956: - مكلف بالتنسيق بين الدراسات التحضيرية لأول تصميم خماسي مغربي، بمصلحة التخطيط.

-تأسيس «الفريق المتداخل الاختصاصات للبحث في العلوم الإنسانية» ERISH

1961: -الالتحاق بالمكتب الوطني للريّ.

1964: -الحصول على الجنسية المغربية.

-التعيين على رأس مكتب الحوز.

1969: -« ما يقوله 296 شابا قرويا»، تحقيق لصالح «اليونسيف»، 144 صفحة (مترجم إلى العربية: مجلة «البحث العلمي»، العدد 1972/19).

1970: (إلى وفاته): -أستاذ بمعهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة.

1974: -« المسألة الزراعية بالمغرب-1» (بالاشتراك مع ن. بودربالة، م. الشرايبي)، 423 ص.

1977: -« المسألة الزراعية بالمغرب-2» (بالاشتراك مع ن. بودربالة، م. الشرايبي وأ.حمودي)، 220 ص.

-« حوز مراكش: التاريخ الاجتماعي والهياكل الزراعية»، (أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في علم الاجتماع)، في مجلدين، 858 ص.

1980: -«دراسات قروية» (أفكار وتحقيقات حول القرية المغربية)، 290 ص.

1983: -« بني بوفراح» (دراسات في الايكولوجيا الاجتماعية لسهل ريفي)، بالاشتراك مع هرمان فَان ديرفُّوستن، 297 ص.

1984: -« دار إيليغ والتاريخ الاجتماعي لتازروالت»، (بالاشتراك مع أ.عريف. د.شروتر، م. الطوزي، ه.ف.ديرفّوستن، 222 ص.

-« المسألة المائية بالمغرب»، (بالاشتراك مع ن.بودربالة، ج.شيش، ع. حرزنّي) 397 ص.

1985: -(ليلة 22 أبريل)، الوفاة بموريتانيا في حادثة سير، رفقة الباحث المغربي أحمد عريف.

بول باسكون (2): لماذا اخترت الاهتمام بالبادية وماذا عن التزامي السياسي؟

فى: يونيو 08, 2016

محمد المساوي

اخترنا أن نستهل عملنا لتقريب القراء إلى مشروع بول باسكون، بنشر هذا الحوار المهم الذي أجرته الباحثة زكية داوود مع باسكون سنة 1978 لحساب مجلة "لاماليف"، وقام الراحل مصطفى المسناوي بترجمته واعادة نشره في مجلة "بيت الحكمة" العدد الثالث أكتوبر 1986. في هذا الحوار يتحدث باسكون عن عشقه للبادية المغربية، وعن علاقته بالفلاحين والاهالي في المناطق التي كانت مسرحا لأبحاثه الميدانية، ويجيب عن سؤال: لماذا علم الاجتماع القروي؟ كما يستعرض فيه أهم مراحل مسيره الدراسي، وأهم المشاريع البحثية التي شارك فيها أو تلك التي أنجزها بصفة فردية، ثم يتحدث باسكون في الحوار عن ميله السياسي، و عن حساسية موقع عَالِم الاجتماع وعلاقته بالالتزام السياسي او بالاحرى الالتزام الحزبي...

في الحوار افكار تفتح الطريق لفهم مشروع باسكون وتتيح لنا امكانات التعرف على الخلفيات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي كانت توجه عمله.. لذلك اخترنا أن ننشر هذا الحوار أولا، ليكون القارئ مهيئا للاطلاع على بعض أعمال بول باسكون، ويكون مزودا بحد أدنى من المعرفة بسياق انجازها، ولأن الحوار كان مطولا، وأُجري اصلا ليُنشر في مجلة علمية، ارتأينا ان ننشره مقسما الى ثلاثة اجزاء مراعاة لظروف النشر الالكتروني، وأيضا حتى لا يشعر القارئ غير المتخصص بالملل والنفور من الاطالة، واعتمدنا في هذا التقسيم معيار الموضوعات الكبرى التي تناولها الحوار، حتى يسهل على القراء وضع اليد (على مفاتيح المشروع الباسكوني (نسبة الى بول باسكون.

فيما يأتي الجزء الأول للحوار:

منذ سنوات عديدة وأنت تشتغل على المجتمع القروي المغربي. لماذا هذا الاهتمام؟ وكيف انتهى إليك؟

نعم، فانا أشتغل على المجتمع المغربي منذ عام 1953. لماذا؟ لقد ولدتُ بمدينة فاس، وكانت المعرفة التي حصلت عليها عن المغرب قروية دائما. فجدّاي –من جهة أمي كما من جهة أبي- كانا معمّرين في منطقة فاس بين الضويات ووادي النجا.

لم يكن جدّاي معمّرين كبيرين على النحو الذي نجده في المصوَّرات الكلاسيكية، كلا، بل كانا معمرين صغيرين، خجولين وغارقين في الديون، يعيشان على الحد الأدنى. علاوة على أنهما لم ينجحا، واضطرا للابتعاد عن الزراعة قبل حصول المغرب على استقلاله. إلا أنني عشت طفولتي في الوسط القروي لعهد الاستعمار. وأتذكر على نحو خاص أنني، وأنا في حدود الثامنة من عمري، أسرني حديث قروي كان يقيم بـ"نوالته" (خيمته) فوق النبع الذي كنا نأتي منه بالماء. قال لي أنه كان دائما يزرع الأرض التي يملكها جدي حاليا، وأن هذا الأخير يشغّل عليها ريفيين كعمال، أي أناسا قادمين من مكان جد بعيد، دون أن يشغله هو.

وأعتقد أن اختيار مهنة ما، أو بالأحرى، اختيار مركز اهتمام معين في الحياة، يرتبط دائما بقضايا شخصية.

التأثير القوي الثاني عليَّ كان أن والديَّ فُرضت عليهما الإقامة الإجبارية خلال الحرب العالمية الثانية، بسبب مقاومتهما لنظام فيشي)الموالي للنازية في فرنسا)... وبقيت وحيدا في إحدى داخليات فاس، مرفوضا من الوسط الفرنسي ولا اتصال لي بغير التلاميذ المغاربة. في هذا الوقت بالذات، وكرد فعل على وسطي الأصلي، شرعت في تعلم العربية، التي اخترتها كلغة "أجنبية" أولى، والتحدث بها.

بعد ذلك، غداة الحرب، كُلِّف أبي ببناء سد على وادي كير، إلا أن الدراسات حول الموضوع سرعان ما توقفت بناء على طلب من السلطات الفرنسية بالجزائر بسبب المخاطر التي يحملها السد بالنسبة لسقي توات وتيديكلت. هكذا عشت في بوذنيب وتافيلالت، بقرى صغيرة، قبل أن أذهب لتتميمي تعليمي الثانوي بثانوية غورو بالرباط.

بموازاة ذلك، سجلت نفسي بمعهد الدراسات المغربية العليا، وبما أنني كنت أتكلم العربية، شجعني أساتذة –كانوا يدرِّسون ما يمكن أن نطلق عليه اسم انثروبولوجيا استعمارية- في هذا الاتجاه، وطلبوا مني أن أقوم باستطلاعات لحسابهم.

أية استطلاعات؟

عن الهجرة إلى جرادة، في سوس.

وكنت تقوم بها لوحدك؟

نعم، لقد كان التنقل أيام الحماية الفرنسية أسهل على فرنسي منه على مغربي. لم يكن للمغاربة لا الحق في السفر داخل بلادهم ولا إمكانيته.

وكان الوضع ملتبسا بالنسبة لي، لأني من أصل فرنسي: لأن منظومتي المرجعية وثقافتي فرنسيتان، وكذا الجانب الديني الذي كانت قاعدته مسيحية. كان المغرب والإسلام، إذن، عالمين ينبغي فهمهما، لكن دون أن استطيع، وبذات الوقت، تصوُّر مستقبل وجودي ذاته في غير هذا البلد. لقد كانت المشكلة المركزية هي تلك المطروحة بين وضعي ووضع البلاد.

كيف كان يستقبلك الناس؟

بطريقة مدهشة، وخاصة لأنني أتكلم العربية. في سنة 1951 أنجزت دراستين في إطار المباراة العامة، عن نظام حقوق الماء في وادي درعة ووادي زيز، ولأجل ذلك قضيت شهرين في الميدان، راجلا، وحيدا، بعدهما قدّمت تقريرين سميكين إلى متحف باريس التربوي. كنت أصمم أكثر فأكثر على دراسة علم الاجتماع، إلا أن هذه المادة الدراسية لم تكن موجودة بالمغرب في تلك الأثناء، وكل ما كان هناك هو الاثنوغرافيا التي كنت لا زلت أتصوَّرها مثلما يتصورها أولئك الذين يدرسونها، أي في إطار استعماري.

هل كانت تلك إرادة منك للفهم؟

نعم، لكن في تناقض مع قضية تحرير البلاد. كانت رؤية من عالم آخر، إلا أنني بدأت أدرك، بذات الوقت، إلى أي حد كانت المشاريع المدينية والفلسفية بعيدة عن الوضع في البلد المعني. لقد كان وادي درعة ووادي زيز، كتنظيم وكتصور للمستقبل، أمرا خاصا. كان الناس يعيشون متروكين لحالهم، وكأنهم في إناء مغلق، تحيط بهم الإدارة الاستعمارية وكأنها تحتفظ بهم في متحف. لم يكن لهم الحق في التغيّر. والواقع أن هذه المشكلة لا زالت مطروحة إلى اليوم: بعد الشقة بين تطور الأفكار في الأوساط المدينية وثقل واقع البادية. ولا زالت مناقشات الأوساط المدينية تبدو منتمية إلى علم المستقبل مقارنة مع وضع البادية الملموس.

لكنك أكَّدت في إحدى كتاباتك على قيمة اليوتوبيات؟

غير أنه إلى أي حد يمكننا تمطيط المسألة، وما هي المسافة بين اليوتوبيا والواقع الملموس؟ هل يمكن لهذه اليوتوبيا أن تلعب دور المحرك أم لا؟ وهل يعلم بها الناس مجرد العلم؟ إن ظاهرة الهجرة قد غيرت الآن أشياء كثيرة حقا.

لنعد إلى دراستك...

نعم، كان من الضروري الحصول على شهادة إجازة، فاخترت -بطريقة لا واعية إذّاك، إلا أنها دالة في نهاية الأمر- العلوم الطبيعية لتطوير الملاحظة وتقنيات الملاحظة، الشيء الذي لم يكن ليبتعد بي عن علم الاجتماع الذي ظهر كشعبة للدراسة بالمغرب بعد ذلك بسنتين. في غضون ذلك كلفت بانجاز تحقيق آخر عن إمكانيات إعادة صناعة الحديد الفرنسية إلى ما كانت عليه بالشرق. ورغم أهمية هذا العمل فإن الذي أملاه علي كان أسبابا مادية بالخصوص. إلا أن اهتمامي ظل قرويا، فشكّلنا –بعيدا عن المقتضيات الأكاديمية- مجموعة صغيرة من الطلبة المنتسبين جميعهم إلى المغرب، مجموعة تتداخل اختصاصات بحثها وتتكامل، وهو شيء لم يكن موجودا إذَّاك، وذهبنا إلى جزيرة كورسيكا، بتمويل من متحف الفنون والتقاليد الشعبية، لانجاز دراسة عن تاريخ قرية كورسيكية في إطار أطروحة حول علم الاجتماع القروي.

ثم جاء استقلال المغرب في هذه الأثناء. فدعا أشخاص من وزارة الاقتصاد الوطني مجموعتنا للعودة إلى الرباط، حيث أُلحقت شخصيا بمصلحة التخطيط، وكُلِّفت ابتداء من [عام 1956 بالتنسيق بين الدراسات الجارية لتحضير أول تصميم خماسي مغربي

وفي إطار التصميم، قضيت بالبادية حوالي سنتين من أجل إنجاز دراسات جهوية. وكنا أسسنا إذَّاك الفريق المتداخل الاختصاصات للبحث في العلوم الإنسانية (إيريش) بتعاون مع المجموعة التي جرى تشكيلها بباريس، والذي كان تعاونية عمالية للإنتاج تؤجر خدماتها للدولة فقط. في هذا الإطار طلبتنا عدة وزارات وأنجزنا عدة دراسات، مثل تلك التي تناولت قيادة السفن في ميناء الدار البيضاء، حيث كان عمال الرافعات الفرنسيون يهددون بالقيام بإضراب، فشرعنا في المغربة، وفي تكوين 450 عامل من عمال الميناء ومحو أميتهم وتعليمهم القراءة والكتابة، كما كلّفنا المكتب الشريف للفوسفاط بدراسة تطور القرى المنجمية واستقلالها الذاتي فيما يخص التسيير، فأنشأنا مركز التكوين المهني للمكتب الشريف للفوسفاط، ومدرسة تويست بوبكر، ودرسنا سوق الورق، الخ، في نفس الوقت الذي ساهمنا به في تحرير التصميم. وقد أنجزنا كثيرا من الأشياء: مركزا سمعيا بصريا، وسلسلة من المقالات والدراسات. إلا أن هذه الأعمال تم انجازها بناء على طلب ملح من السلطات قصد حل المشاكل الأساسية التي تطرح على الصعيد الحكومي، دفعة وراء دفعة. وكانت هذه وضعية انتظار فحسب بالنسبة لي، إذ ظل اهتمامي مركز على العالم القروي، حيث أنني كنت أدرِّس بمعهد علم الاجتماع وكنت أحث الطلبة على الدراسات الميدانية.

في سنة 1961، وبعد خمس سنوات من التجربة في "الايريش"، حصل شيئان: حصول الجزائر على استقلالها من جهة، وإنشاء المكتب الوطني للري من جهة ثانية. فذهب الفرنسيون الذين كانوا معنا بالفريق إلى الجزائر، ومن تبقى منهم التحق بمكتب الري، الذي مثَّل بالنسبة لنا ما كنا نفكر فيه ونودُّ القيام به.

خلال هذا الوقت حصلتَ على الجنسية المغربية؟

بمجرد ما عدت إلى المغرب اخترت الجنسية المغربية، وقدَّمت ملفي عام 1959. أي بمجرد ظهور قانون طلب الجنسية.

محمد المساوي

